مشغول!

١٩/ ٤/ ١٤٣٦هـ

يبدو أن هذه الكلمة مِن أكثر الكلمات التي نسمعها ممن يُطْلبُ منهم عملٌ ما!

ومن المؤكـد أن بعضَهم كذلـك، إلا أن مما يدعو إلى الدهشـة: أن يفاجئـك طفلٌ في المرحلة الابتدائية-عندمـا تطلب منه عملًا، أو تعاتبه على تقصيره- فيقول: أنا مشغولٌ!

الانشـغالُ الحقيقيُّ المثمِر علامـةُ حيويةٍ ودَأَبٍ، والإنسـانُ بطبعه (همّـام)، بل التوقّـف علامةُ مرَض، لكـن هل هذه الكلمـة تُقال في موضعها؟ أم هي كلمة نعبِّر بها -أحيانًا- عن هروبنا من تحمّل المسؤولية أو العمل الذي يُراد مِنّا فعلُه وتنفيذُه؟

الواقع أن أكثر الناس لديه وقتُ فراغٍ كثيرٍ، ويعيش (فوضى منظّمة)، والقليل منهم من يرتبط بأعمالٍ تسـتهلك أكثـرَ وقته، ولا أظن أنني في حاجة لذِكر الشواهد على هذا.

والسبب في انتشار هذه (الفوضى المنظّمة) -في تقديري- هو: غيابُ

الأهـــداف الواضحة عند كثيرٍ من الناس، وأعني بها الأهدافَ الواضحةَ للإنســـان في هذه الحياة، الأهداف التي تنقل الإنســـانَ مِن السَّـــلبية إلى الإيجابية والتأثير، ومِن الفوضى إلى الترتيب.

ومِـــن البدهـــي -الذي لا يحتـــاج إلى تقريـــر- أن النـــاس تتفاوت هِمَمُهـــم، وتتباين أهدافُهـــم وقدراتُهم، لكن من المؤكـــد أن كثيرًا منهم يســـتطيع أن يكون رقمًا مؤثرًا ولو تأثيرًا قليلًا، المهم أن يَطرد عنه الكسلَ والانشـــغالَ الموهومَ، وإلى هذا يشـــير قولُـــه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طوبى لعبدٍ آخذٍ بعَنان فرَسه في سبيل الله، أشعثُ رأسُه، مغبرةٌ قدَمَاه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة كان في الساقة**»[1]، فهذا رجـــلٌ قد لا يُؤبَه لـــه، لكنه شـــخصٌ مؤثِّر، وحيثـــما وُضِع نَفَع.

ومِن الأجدر بالعاقل أن يراجع ترديدَه لكلمة (مشـــغول)، وأين تقع هذه الكلمة في خريطة حياته (الجادّة)؟ وكم سيضيف ترديدُ هذه الكلمة إلى رصيده من المنجزات بعد عشرات السنوات؟!

وثمة نوعٌ من الشغلِ لهجتْ به ألسنةُ السلف الصالح -رضي الله عنهم- وهو شـــغل القلب واللســـان بما يصلحهما، كقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما هذه القلوب أوعية، فاشـــغلوها بالقرآن، ولا تشـــغلوها بغيره»[2].

ويقول جعفر بن محمـــد: «إياكم والخصومة في الدين؛ فإنها تَشـــغل القلبَ، وتُورث النفاق»[3].

---

(١) رواه البخاري (رقم٢٨٨٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦).

(٣) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥٢٦).

ومِن توفيق الله لعبده أن يوفِّقه لنوعٍ من أشرف معاني هذا (الانشغال)، وهو: أن ينشغل العبدُ بعيوبه عن عيوب غيره، ولسانُ حالِه يقول: إن في النفس لشُغْلًا عن الناس.

والويل لمن ابتُلي بالانشغال بعيوب الناس عن عيب نفسه، أو انشغل بباطلٍ من القول أو العمل، يجد غِبّه إذا انتقل عن هذه الدار.

ولنختم هذه الأسطر بكلمةٍ معبّرة على الرغم من قِصَر كلماتها، تلك هي التي لخّصها الإمامُ عبدالرحمن بن مهدي (١٩٨هـ) واصفًا حالَ شيخه المحدِّث الجليل حمّاد بن سلمة (١٦٧هـ) بقوله: لو قيل لحمّاد بن سلمة: إنك تموت غدًا؛ ما قَدِرَ أن يزيد في العمل شيئًا![1].

اللهم، فاملأ قلوبَنا بك فرحًا، وألسنَتنا لك ذِكرًا، وجوارحَنا فيما يرضيك شُغلًا.

(١) ويعني بذلك عمل البدن، أما عبادات القلب فلا حدّ لها.